نحو تفسير إسلامي للتخلف الاقتصادي في العالم الإسلامي

الباحث/ مصطفي محمود عبد السلام(*)

تمهيد:

أشاع الغرب نظرية مقياس التقدم والتأخر على أساس اعتبار نموذجه ممثلا للتقدم واعتبار بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية نماذج التخلف فاعتبر نموذجه معيار التقدم وأخذ يقيس عليه النماذج الأخرى التي ستعتبر متخلفة بالضرورة طالما وحدة القياس هي النموذج الغربي.

وقد سادت تاريخيا في الفكر الغربي عدة أفكار لتحديد معيار التقدم والتخلف، أولي هذه الأفكار هي التي اتخذت عنصر القوة وتنازع البقاء معياراً للتقدم والتخلف ومن ثم تدخل القوة المادية والعلوم والتقنيات والقدرات الإنتاجية باعتبارها معيارا لما هو أقوى وأصلح أي ما هو تقدم، وعندما يقوم المعيار على هذا الأساس يصبح القوى هو صاحب الحق وهو الأصلح للبقاء وهو ممثل التقدم فيصبح ما يقوم به من أعمال تقدما وإلى أمام، وما يقوم ضده من أعمال تأخرا وإلي وراء، ويغدو نموذجه ونمطه نموذج التقدم ونمطه.

ثم سادت في الفكر الغربي بعد تطور المفهوم السابق فكرة تخلف المجتمعات الإسلامية باعتبارها سببا لتفسير ظواهر أخرى كالاستعمار الذي أعتبر أن تخلف المجتمعات الإسلامية هو السبب في سيطرة الاستعمار الذي تم بالقوة والبطش وخطورة هذه الفكرة أنها ركزت بصورة أشد على اعتبار مجموع قيمنا وأخلاقنا وعاداتنا وعلاقتنا ونهجنا في الحياة مرادفة للتخلف.

(*) باحث في شئون الاقتصاد الدولي ـ بنك التمويل المصري السعودي.

ومن ثم تكون مقولة التخلف موجهة أولا وقبل كل شئ إلي مجموع تلك القيم والأخلاق والعادات والأفكار ونهج الحياة وهذا يتضمن فيما يتضمن التعريض بالإسلام لأنه في نظرهم مصدر ذلك، ومن ثم فإن الإقلاع عن التخلف هو التشبه بالغرب في الأخذ بقيمه وأخلاقه ونهجه في الحياة.

والقضية التي تنطلق منها هي أن المسألة لم تعد مسالة انتقال الجنوب ـ

العالم الإسلامي ـ إلي مصاف البلدان المتقدمة التي يقصد بها عادة بلدان أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان، على الرغم من أن هذا الانتقال بات شبه مستحيل، بل إن المسألة هي كيف يمكن تحقيق نموذج عالمي بديل يتجاوز الأزمة الحضارية التي بلغتها تجارب الدول المتقدمة نفسها.

وحيث قامت تجارب تلك الدول على مفهوم للسيطرة ذي حدين هما:

١ـ سيطرة الإنسان على الإنسان، وهو مفهوم كانت نتيجته تفاوتا في المشهد بين بلدان ـ أو طبقات ـ غنية تتمتع بمستوى معيشي واستهلاكي مرتفع وبين بلدان أو طبقات ما زالت تشكو الجوع والحرمان والجهل والبؤس والتخلف من جهة، وإخلالا رهيبا في النظام الطبيعي إلي حد بات يهدد مستقبل الحياة على الأرض.

٢ـ سيطرة الإنسان على الطبيعة فقد جاء عصر الحداثة ـ العولمة ـ ليضع الإنسان في موضع الخصم لهذه الطبيعة فبقدر ما تخطو الحداثة خطواتها وتحقق مزيدا من التقدم التكنولوجي تكون سيطرة الإنسان على الطبيعة قد تعززت وينال هذا الإنسان من القدرة والحرية ما كان مستحيلا نيله لولا تلك السيطرة وقد ترجم مفهوم السيطرة هذا عبثا بالطبيعة واستنزافا لمواردها وإخلالا بنظمها إلى حد لم تعد معه آثار الطبيعة في حياة الإنسان التي جعلته يسعى للسيطرة عليها أشد ضررا عليه من تلك النتائج التي حققها عبر سيطرته هذه.

وبالتالي فلابد للمشروع البديل أن يحاول الإفلات من هذا المفهوم ويعيد النظر في كثير من المنطلقات والقوانين الوضعية التي قامت عليها الدولة الحديثة ويحدد رؤية جديدة تتجاوز مفهوم السيطرة المزدوجة وتحقق المصالحة بين الإنسان والإنسان من جهة والإنسان والطبيعة من جهة أخرى، وبالتالي فإن المنظومة البديلة (الإسلامية) التي تتجاوز المناهج التي سادت في الأدبيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى دول العالم الإسلامي لابد أن تكون نابعة من ذاتيتها وخصوصيتها التي لا تتقلد فيها بالأنماط الأخرى.

والحقيقة أن هناك من العقائد والقيم التي لو التزمت بها المجتمعات الإسلامية لحققت التقدم والتنمية الشاملة، وأن سقوط هذه المجتمعات في براثن التخلف إنما يعنى عدم التزامها بدينها، فليس الإسلام هو السبب في سقوطها فقد سادت حضارة الإسلام حقبة كبيرة من الزمن بسبب التزامها بعقيدتها ولما تخلت عنها تخلفت.

وهذه المقالة تستعرض أهم أسباب التخلف في العالم الإسلامي ويضع توصيفا لهذه الأسباب التي تشترك فيها المجتمعات الإسلامية.

وتستبعد المقالة فكرة الاستعمار كسبب للتخلف والتي سادت في كتابات كثير من الاقتصاديين[1].

(١) عبد الله المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي – دراسة تاريخية مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (٧١)، سنة ١٩٨٣، ص٦٩.
– د. محمد السيد سعيد، نظرية التبعية وتفسير تخلف الاقتصاديات العربية، – في عادل حسين وآخرون "التنمية المستقلة في الوطن العربي" سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص١٣٢.
– عادل حسين، التنمية العربية الواقع الراهن والمستقبل، نفس المراجع السابق، ص١٢. =

وذلك لأن الاستعمار جاء نتيجة للانحراف العقدي الذي ساد أوساط العالم الإسلامي والذي يتبناه الباحث باعتباره محورا مستقلا وما يأتي من بعده من أسباب يعتبر محوراً تابعاً فكلما زاد الانحراف العقدى والقيمى تبرز الأسباب التالية وبصورة متزايدة.

ويعيش العالم الإسلامي بشكل أو بآخر على أرضية صراع فكرى بدأ قديما بين:

١ـ المركزية الثقافية الغربية وما نشأ عنها وارتبط بها من أحكام ومعايير ومناهج آراء ونستطيع أن نتتبع تجلياتها وتحولاتها وتقلباتها في مجالات قوة وسطوة وعلم وحضارة وتفوق وتقنية عالية متعددة واستندت إلي مبدأ سيطرة الأقوى وسياسة نهب العالم الفقير والسيطرة عليه وفتح أسواقه للاستهلاك وأدوات للابتزاز ومصدر للعمالة الرخيصة ومصادر عامة للموارد والمواد الخام والثروات الطبيعية التي يحتاج إليها هؤلاء الأقوياء المتقدمون صناعياً.

٢ـ المركزية الثقافية الإسلامية والتي تؤمن بمقولة تلازم الأخذ بالفكر والعلم والتقانة ونظام الحياة والسلوك كل في آن واحد دون تجزئة أو اختيار أو انتقاء، ولا تقبل أن يكون الإسلام واللغة العربية بما حملت من إرث ثقافي واقتصادي وحضاري شامل عبر تاريخها الطويل وراء أسباب التخلف البادية ووراء ما أصاب الأمة من هزائم وتراجع وتجزئة.

أولاً: الانحراف العقدى والقيمى:

إن الحضارة الإسلامية تمارس كل أنواع النشاط البشرى التي تؤدي إلي عمارة الأرض من تجارة وعلم وصناعة وغيرها وتسعى إلى الإنتاج الوفير في كل أبواب الإنتاج

=– د. إسماعيل صبري عبد الله، "محاولة لتحديد مفهوم مجهل"، مجلة المستقبل العربي، بيروت، عدد (٩٠)، ١٩٨٦، ص٤٥.

– د. على لطفي، دراسات في التنمية الاقتصادية، مكتبة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٥٠.

ولكنها في سعيها كله تلتزم بالحلال والحرام وبالقيم الأخلاقية وبما يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر من تشكيل للسلوك.

يقول تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[1].

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2].

كانت تجارة العالم في أيدي المسلمين من الصين إلي أوروبا مع ما يستنبع ذلك من معرفة بطرق الملاحة البحرية وطرق اليابسة في آسيا وأفريقيا إلي مداخل أوربا ومن العجب أن يكون الرائد الذي دل «فاسكو دى جاما» وأعانه على إتمام رحلته عن طريق رأس الرجاء الصالح ـ وهو كان مكشوفا للمسلمين من قبل ـ هو البحارة العربي المسلم «ابن ماجد» الذي أمده بالمعلومات والخرائط الملاحية وقاده بنفسه نحو جزر الهند الشرقية في غفلة منه ساعدت دون قصد في تمكن الاستعمار من الدول الإسلامية ومحاربتها اقتصاديا وعسكريا[3].

وقد كانت الصناعة المتاحة للناس في ذلك الوقت مزدهرة في مراكز العالم الإسلامي المختلفة وكانت دور العلم عامرة بالأساتذة والطلاب في كل فرع من فروع المعرفة وما تفردت به الحضارة الإسلامية أنها كانت تقوم بنشاطها التجاري الواسع الذي يمتد من المحيط إلي المحيط وكان ذلك لا يؤدي بها إلي استعمار الأمم الأخرى لنهب خيراتها للحصول على أكبر قدر من الربح كما حدث بالنسبة لدول أوروبا التي سادت العالم فيما بعد.

---

(١) سورة الملك: ١٥
(٢) سورة القصص:٧٧
(٣) محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة، السعودية، الطبعة الأولي، ١٩٨٧، ص١٨٨.

ولأمور كثيرة لم تحافظ الأمة الإسلامية على المستوى السامق الفذ الذي مارسته عدة قرون طويلة وتخلت عن القيادة لدول الاستعمار وكان ذلك بسبب ما ساد في مجتمعاتها من انحرافات عقدية وقيمية حيث أفرغت معاني العقيدة من محتواها الأساسي وأصبحت لا إله إلا الله كلمة تقال باللسان، وأخرج العمل من مسمى الإيمان، ونشأ التواكل بديلا عن التوكل والذي يعتبر طاقة إيجابية دافعة يقوم به المؤمن مع اتخاذ الأسباب.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[1].

أما التواكل فهو صورة سلبية معطلة تتقاعس عن الأخذ بالأسباب متذرعة بالتوكل على الله لقد أفسد التواكل كثيرا من عقيدة القضاء والقدر وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلي عقيدة سلبية مخذلة، وإلي الرضا السلبي بالواقع وعدم محاولة التغيير بحجة أن «مالك سوف يأتيك» وتخليا عن مسئولية الإنسان عن عمله بحجة أن ما وقع بقدر الله، وقعودا عن تغيير الواقع السيئ من مرض وعجز وفقر، ونشأ بذلك القعود عن تعمير الأرض بحجة أن الدنيا ملعونة والمعول عليه هو الآخرة، وأن الإنسان حسبه في هذه الدنيا عيشة الكفاف لكي ينجو بروحه من التعلق بالدنيا ولكي يفرغ روحه استعدادا للآخرة.

وبذلك تم الانصراف عن عمارة الأرض بهذه المفاهيم المغلوطة.

فالقعود عن الإنتاج وحصره في أضيق نطاق ممكن وهو نطاق الكفاف يجعل الدولة تعيش كلها في حالة الكفاف ولا يجعل لديها الفائض الذي تنفقه في متطلبات التمكين و عمارة الأرض.

(١) آل عمران: ١٥٩

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(١).

والعبادة هنا تقتضي العمل وليس القعود عن العمل والإنتاج، فالأمر يحتاج إلي الإنتاج الوفير والاستهلاك الأقل وهذه هي المعادلة التي يتم بها التمكين وعمارة الأرض.

أما الإنتاج القليل على قدر الاستهلاك القليل فلا يؤدي إلا إلي فقر مجموع الأمة الإسلامية، والفقر الذي أدي إلي الضعف والتخاذل.

والاقتصار على البعد الروحي في العبادة هو مفهوم خاطئ للعبادة فالروحانية ليست مسلة غيبية مجردة تجسدها مختلف الشعائر الدينية فحسب وإنما هي العمل الصالح ابتغاء وجه الله والحث عليه لتوظيف وتعبئة كل الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة بهدف توفير ظروف أكثر ملاءمة للإنسان يتسنى له من خلالها إدراك معنى وقيمة وغاية وجوده، إنه مفهوم للعبادة يربط الممارسة بالتأمل لتحرير العقل والسمو به من دائرة استكشاف الخيرات والتمتع بها دون إسراف أو تبذير، إلي دائرة أرقي تتيح إقران كل ذلك بالتأمل ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا. فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾(٢).

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٣).

(١) سورة النور: ٥٥
(٢) عبس: ٢٤-٣١
(٣) الروم: ٥٠

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ. وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[1].

ليشمل هذا التأمل التاريخ البشرى بأكمله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

وذلك بهدف استخلاص العبر والاستفادة من تجارب الآخرين لتقويم مسيرة الإنسان نحو تحقيق حريته في أعلى مراتبها وأتم أشكالها توحيد الله عز وجل حيث تقترن الممارسة بالوعي، الوعي بالمسئولية والمسئولية بالآخرة ويمتزج الإيمان بالإخلاص والإخلاص بالتقوى والتقوى بالعمل.

إننا بازاء منهج رسالى فريد جاء ليجمع بين الأرض والسماء في نظام الكون والدنيا والآخرة، في نظام الدين والروح والجسد، في نظام الإنسان والعبادة والعمل، في نظام الحياة، يسلكها جميعا في طريق موحد هو الطريق إلى الله ويخضعها كلها لسلطان الله[3].

أيضا سادت في المجتمعات الإسلامية ظاهرة تكاد تكون عامة هي ظاهرة فقدان المعيار الخلقي القيمي السليم الذي يحكم السلوك والعلاقات والصلات بين الأفراد والأسر والجماعات فالكيان الروحي للفرد والأمة يتآكل في مثل هذا الوضع وتنحسر الطموحات والتطلعات وتتقوقع الإرادة وتتراجع وتضمر وتضعف النفوس وتنمو

(١) سورة ق: ٦-١٠
(٢) سورة محمد: ١٠
(٣) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٤، ص٢٥.

القابلية للتخلف والمذلة والهزيمة وأشكال الخواء الروحي والعقلي والاجتماعي وتصل إلى أفضل مستوياتها في الأداء السلبي.

إن بنية اجتماعية وروحية كهذه يزداد فيها استعداد الفرد للاستهلاك والتقليد والاتباع ويقل في مناخها إنتاجه كما تقل مبادراته وإبداعاته وتراه يستسلم في ظلها شيئا فشيئا لإحساس يشتد في أعماقه بعدم الجدوى من بذل أي جهد للحاق بالمتقدمين والمبدعين المعاصرين وبالتالي يدمن تقليدهم ومجاراتهم في استهلاك ما يستهلكون ويدخل من هذا المدخل وسواه إلي ساحة الإحساس بالدونية ويعكف على تسويغ ذلك وإدمانه، وربما أطل في لحظات أيضا ورأى عمق الهوة التي يشارك هو في صنعها تلك التي تفصله عن الواقع والعصر ولكنه لا يلبث أن يستسهل السهل بدلا من أن يسهل الصعب بطموح وعمل يوصلانه إلي حيث المراتب العليا.

إن كل المفاهيم الإسلامية قد فسدت وانحرفت في حس الأجيال المتأخرة حيث كان الانحراف على النحو التالي:

أ- مفهوم لا إله إلا الله أصبح مجرد كلمة تقال باللسان والقلب عنها غافل، والسلوك عنها بعيد.

ب- مفهوم القضاء والقدر الذي تحول إلى قوة مثبطة مخذلة.

ج- مفهوم الدنيا والآخرة اللتين انفصلتا وتحولتا إلى معسكرين متقابلين متعاديين العمل في أحدهما يؤدى إلى إهمال العمل في الآخر.

د - مفهوم عمارة الأرض الذي تحول من عمارة الأرض بمقتضى منهج الله إلى توقف العمارة، وأصبحت المجتمعات الإسلامية في النهاية صورة باهتة وممسوحة لا تستطيع أن تصمد للهجوم الوحشي الذي تدافع إليها من كل صوب في صورة استعمار لهذه الدول، وبما يعنى سقوطا في براثن التخلف والتبعية.

ثانيا: الانحراف عن عمارة الأرض:

عمارة الأرض هي جزء من الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٢).

وعمارة الأرض وفقا للنهج الرباني تستلزم الأخذ بالأسباب العلمية والمادية وترفض بالتالي التواكل والقعود عن الإنتاج حتى لا تتحكم دول الاستعمار في هذه المجتمعات المتخلفة ومن هذا المنطلق فلا يكفي الاستغفار والدعاء لجلب الأرزاق وقد قال عمر بن الخطاب للذين كانوا قابغين في المسجد بدعوى التوكل على الله «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة إنما المتوكل رجل ألقى حبة في الأرض وتوكل على الله»(٣).

وشمل موجبات الأخذ بالأسباب في المفهوم الإسلامي ما يلي:

١ـ العمل الجاد والضرب في الأرض ابتغاء الرزق الطيب:

فالعمل في الإسلام واجب شرعي وضرورة بشرية تنفيذا لأوامر الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(٤).

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّه﴾(٥).

---

(١) البقرة ٣٠
(٢) سورة هود: ٦١
(٣) موسوعة المحدث، اسطوانة الليزر.
(٤) سورة الملك: ١٥
(٥) سورة الجمعة: ١٠

وقد اهتم الرسول ﷺ «بالعمل وحث الناس على طلب الرزق «من بات كالا من عمل يده بات مغفورا له»[١].

«إن أشرف الكسب كسب الرجل من عمل يده»[٢] .

«ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[٣].

وذم الرسول ﷺ الرجل الذي يسأل الناس وحث على العمل «من سأل مسألة وهو عنها غنى كانت شيئا في وجهه يوم القيامة»[٤].

كما لا يجوز إعطاء الزكاة والصدقات للغنى والقوى القادر على العمل والكسب «لا تحل الصدقات لغنى ولا لذي مرة (قدرة أو مقدرة)» [٥].

ونخلص من هذه الأحاديث بما يلي:

١ـ محاربة الإسلام للكسالى ودفعهم للعمل ولا يجوز للرجل القادر على العمل أن يعيش عالة يتكفف الناس أعطوه أو منعوه.

٢ـ الرزق مرتبط بالسعي وبذل الجهد.

٣ـ العمل من موجبات الحصول على الرزق فكما لا يجوز للفرد القادر أن يعال من غيره فلا يجوز للدولة المسلمة أن تعيش عالة على الدول الأخرى ومواطنوها كسالى خاملون.

---

(١) رواه أحمد
(٢) رواه أحمد
(٣) رواه البخاري
(٤) موسوعة المحدث
(٥) رواه الترمذى

٢ـ الهجرة والضرب في الأرض ابتغاء الرزق:

يمكن للمسلم الهجرة إذا لم يستطع الحصول على الرزق الطيب في بلده حيث أن رزق الله غير محدد بمكان وليس محصوراً في جهة وليس حكراً على أحد ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[١].

ولقد ورد في تفسير ابن كثير «أن المراغم هو التحول من أرض إلى أرض وأن السعة يقصد بها الرزق»[٢].

ولقد حث الرسول ﷺ على الهجرة من مكان لآخر لأي غرض ومنها جلب الرزق «سافروا تستغنوا»[٣] حيث أن هذه الأحاديث وأمثالها جعلت المسلمين الأولين ينطلقون في فجاج الأرض ينشرون الدين ويلتمسون الرزق ويطلبون العلم ويجاهدون في سبيل الله[٤].

ومبدأ الهجرة والضرب في الأرض ابتغاء الرزق يصف عالما إسلاميا بلا قيود على عملية الانتقال من بلد إسلامي لبلد آخر في صورة تكاملية يحتاجها العالم الإسلامي اليوم.

والضرب في الأرض يشمل كل الأنشطة طالما كانت مشروعة في نظر الإسلام وصحبتها النية الصالحة وأنجزت بإتقان وإحساس والتزم فيها بحدود الله ولم تحل بين

(١) النساء ١٠٠
(٢) موسعة المحدث
(٣) رواه الطبراني في الأوسط
(٤) د. يوسف القرضاوى، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٥، ص٤٥.

الإنسان وأداء واجباته الدينية كم قال تعالى ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾[1]، [2].

ونخلص مما سبق بأن الإسلام قد عنى بالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي فنظم العمل وأوجب السعي وراء الرزق، وحث على أن تتكافأ الأجور مع طبيعة العمل والمجهود المبذول. ولكن الغالبية الكبرى من السكان في الدول الإسلامية تعاني من الجهل والأمية التي أدت بالكثير منهم إلي تفسير التعاليم والمبادئ الإسلامية تفسيرا خاطئا مما أدي إلي انتشار قيم التواكل والروحانية الخرافية وغيرها من أنماط السلوك التي ر تتفق بالفعل مع احتياجات التنمية الحديثة[3].

ثالثا: سوء استغلال وعدم ترشيد الموارد الاقتصادية:

سيطرة المفاهيم الغربية وسادت على الثقافة الإسلامية كنتيجة طبيعية لحالة التبعية التي تحياها معظم الدول الإسلامية ومنها تفسير المشكلة الاقتصادية على أنها مشكلة الندرة فتتعدد حاجات الإنسان المادية وتنمو نموها المطرد عبر الزمان والمكان مقابل ندرة الثروات الطبيعية في جوف الأرض المحدودة والكفيلة بإشباع تلك الحاجات وبما يطلق عليه «شح الطبيعة» ويصورون الإنسان على أنه في صراع معها على البقاء.

والحقائق تدحض هذه الدعوة فالإنسان لا يزرع إلا أقل من نصف الأراضي الصالحة للزراعة في العالم وفي بعض البلاد المتخلفة لا يصل إلي الخمس فهل هي مشكلة ندرة في الموارد كما يحلو للغرب أن يفسر المشكلة الاقتصادية أم في استغلال الموارد المتاحة (النعم بالمفهوم الإسلامي)؟.

---

(١) سورة النور: ٣٧
(٢) د. يوسف القرضاوى، «عمل الإنسان في معاشه عبادة بشرط»، مجلة الاقتصاد الإسلامي، بنك دبي الإسلامي، دبي، العدد (٧٥)، ١٩٨٧، ص٣٨.
(٣) د. على لطفي، دراسات التنمية الاقتصادية، مرجع سبق ذكره، ص١٣٤.

يقول الفخر الرازى في تفسيره «ولن يتيسر بحال أن نحصى نعم الله سبحانه وتعالى التي سخرها للإنسان لأنها تخفى وتتعدد وتتباين بحيث لا يحتويها الحصر والبيان وهي مع ذلك متوافرة تمتد إليها يد الإنسان إذا ما اجتهد وعمل وقد قضى الله أن تكون الدنيا دار ابتلاء يختبر فيها الإنسان بعمله ولا يحصل على النعم إلا بالجهد ولقد قدرها الله كافية للإنسان ولكن لابد من العمل للحصول عليها وليبتلى في عمله أيحس أم يسيئ وعلى أساس ذلك يكون الخير والبركة في الدنيا والحساب والجزاء في الآخرة ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[1] (موسوعة المحدث).

إن الله عز وجل قد خلق السماوات والأرض وقدر فيها أقواتها وطلب من الإنسان السعي والجد وبذل الجهد واستخدام الموارد الطبيعية التي سخرها الله استخداما رشيدا وفيما يفيد البشر وأن لا يوجهها توجيها لا يقره الإسلام.

وتتحقق أنعم الله عز وجل على البشرية بأحد شرطين أو بهما معا هما:

١ـ العمل على استغلال النعم.

٢ـ الإصلاح في الأرض بطاعة الله فيما أمر.

وتخاذلت الأمة الإسلامية وتخلت عن الشرطين الواحد تلو الآخر وآخذ الغرب بالسبب الأول والذي يحققه الله عز وجل لهم من خلال الجهد والعمل على استغلال الموارد أو النعم فمنحهم الله عز وجل من نعمه التي لم يحجبها عنهم لعدم طاعتهم يقول الله تعالى ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2].

(١) سورة النحل: ١١٢
(٢) الإسراء: ٢٠

إن الله سبحانه وتعالى يعدد نعمه على البشر كافة مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، برهم وفاجرهم، طائعهم وعاصيهم، وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نعمه في الأرض لعلهم يشكرون، وإن الكون مليء بنعم الله الكثيرة وهذا له علاقة بعقيدة التوحيد إذ تظهر فيها يد القدرة وتتجلى آثارها في كل مشهد فيها ومنظر، ثم بعد ذلك لا يشكر ولا يذكر الإنسان[1].

وإنما كانت هذه العطاءات وبدون إصلاح في الأرض بطاعة الله فنزعت البركة وسادت الاهتمامات بالجوانب المادية على حساب الأبعاد الروحية والاجتماعية والأخلاقية.

وبالتالي فليست المشكلة الأساسية هي مشكلة ندرة الموارد الطبيعية كما يقول بذلك الفكر الغربي بقدر ما هي مشكلة استغلال هذه الموارد.

وتتمثل عدة عوامل في تفسير هذا القصور في استغلال الموارد بالنسبة للدول الإسلامية أهمها:

١ـ عدم توافر عناصر الإنتاج الأخرى اللازمة لاستغلال الموارد الطبيعية المتاحة وبصفة خاصة عنصر رأس المال.

٢ـ عدم توافر الدراية والخبرة الفنية اللازمة وسوء الإدارة داخل الوحدات الإنتاجية التي تتولى استغلال الموارد الطبيعية مع عدم إتباع الأسلوب العلمي في مجال الاستغلال الاقتصادي لما يتوفر في الدولة من موارد طبيعية.

٣ـ ضيق السوق المحلي وعدم إمكانية استيعاب كل ما ينتج من سلع مع صعوبة التصدير إلي الأسواق العالمية إما لارتفاع تكاليف الإنتاج أو انخفاض نوعية الإنتاج[2].

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الرابع، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨، ص٢١.
(٢) د. على لطفي، دراسات في التنمية الاقتصادية، مرجع سبق ذكره، ص٥٦.

وبالتالي تحتاج الموارد المتاحة في الدول الإسلامية إلى طاقات الإنسان الإبداعية وأدوات تكون في خدمته وإلي مناخ عمل وإنتاج وحياة تمكنه من استخدام قدراته بإبداع واقتدار وأن يوظفهما التوظيف السليم والناجح لاستغلال الموارد الطبيعية دون قصور أو تعطيل لاستهداف الخروج من مأزق التخلف والتبعية.

رابعا: الآثار السلبية للعلاقات الاقتصادية الدولية:

ساهمت الآثار السلبية للعلاقات الاقتصادية الدولية في استمرار حالة التخلف التي تعتري الدول الإسلامية الآن فالغرب بشكل عام يرفض امتلاك الدول الإسلامية لمقومات القوة والعلم والتقنية المتطورة التي تجعلهم قادرين على تحرر قدراتهم السياسية والاقتصادية وحينما يفيق العالم الإسلامي من غفلة الانحرافات العقيدية والقيمية فإن هناك مؤثرات دولية حدثت بسبب انسحاب العالم الإسلامي من قيادة البشرية وتسلمها للغرب هذه المؤثرات جعلت العالم الإسلامي حبيس التخلف ومنها:

أ- تأثير الثورة التكنولوجية:

تعتبر الثورة التكنولوجية أحد معالم النظام العالمي في المرحلة الراهنة فهي تعد الأساس المادي والمحرك لهذا النظام بحيث أصبح مستقبل العالم اليوم رهن هذه الثورة فأصبحت بالتالي تمثل تحديا ظاهرا للدول الإسلامية التي تريد الفكاك من التخلف فأصبحت الفجوة التكنولوجية بين الشمال والجنوب أكثر اتساعاً وأصبح من الصعوبة أن يقفز العالم الإسلامي إلي تكنولوجيا الثورة الصناعية.

إن الواقع التكنولوجي للعالم الإسلامي يعاني من القصور ويفتقد ذاتية التطور والتقدم ولا يغير من هذه النتيجة إقامة مشروعات صناعية هنا أو هناك تستخدم الآلات والمعدات الحديثة والتي تحوى تكنولوجيا مستوردة بالغة التعقيد.

وبالرغم من أن بعض الدول الإسلامية تمتلك رؤوس أموال ضخمة ومزيداً من قوة العمل الماهرة والمتدربة فإن هذه الدول الإسلامية في نفس الوقت تعتبر سوقاً عالمياً

للمنتجات الصناعية الغربية فعدم توافر التوحيد السياسي والاقتصادي بين تلك الدول تسبب في عدم وجود قوة اجتماعية قادرة على تنظيم موارد الدول الإسلامية في اتجاه تحقيق أهداف تكنولوجية مشتركة.

وترتب على عجز الدول الإسلامية عن استيعاب الثورة التكنولوجية أن أصبحت حقلاً تمارس فيه دول الغرب تجاربها التكنولوجية وتزداد بالتالي درجة تأثر هذه الدول بنتائج الثورة التكنولوجية والمتمثلة أساساً في تزايد درجة الاعتماد المتبادل وظهور نمط تقسيم العمل داخل السلعة الواحدة وتدويل العملية الإنتاجية وخاصة بفعل تصاعد الأهمية النسبية للشركات متعدية الجنسيات، ومن ثم تزداد درجة ارتباطها بالنظام العالمي، ودرجة اندماجها في السوق العالمية وفقا لنمط تقسيم العمل الدولي الذي يتفق مع استراتيجيات النمو والتنمية في النظام الرأسمالي العالمي، وبالتالي تقل مساحة الحركة لهذه المنطقة، وينحسر دورها كفاعل في النظام العالمي، وبصورة أخرى تزداد درجة تهميش الدول الإسلامية أو درجة تبعيتها، وهو ما يضعف قدرتها على التأثير في المتغيرات الدولية.

ب- تأثير التكتلات الاقتصادية العالمية:

تقوم التكتلات الاقتصادية الدولية بوضع إجراءات تؤثر بلا شك في صادرات الدول الإسلامية خاصة وأن التكتلات الاقتصادية وما يرتبط بها من تصاعد النزعات الحمائية يضع حداً على إمكانيات التصنيع التصديري وبالتالي فإن هناك قيودا يمكن أن تضعها هذه التكتلات على مستقبل العالم الإسلامي منها:

١- زيادة النزعات الحمائية ضد الصادرات من خارج هذه التكتلات.

٢- وضع مقاييس فنية موحدة للمنتجات التي يتم تداولها داخل هذه التكتلات مما قد يضع قيداً على صادرات الدول الإسلامية.

ج- تأثير نشاط الشركات عابرة القوميات:

تؤدي الشركات عابرة القوميات (متعدية الجنسيات) الدور القيادي في عملية العولمة حيث تعتبر المصدر الأساسي للثورة التكنولوجية ولحركات رؤوس الأموال الأجنبية وتتسم بكبر حجها وانتمائها إلى دول اقتصاد السوق المتقدم صناعياً.

ويتميز هيكل السوق الذي تباشر فيه هذه الشركات نشاطها بأنه سوق احتكار القلة لما تتمتع به هذه الشركات من احتكار التكنولوجيا الحديثة والمهارات الفنية والإدارية العالمية، وفي الغالب ينتمي المركز الرئيسي لهذه الشركات إلي دول اقتصاديات السوق وفي مقدمتها الولايات المتحدة وتتسم هذه الشركات بتنوع نشاطها الكبير فضلاً عن ازدياد درجة التكامل الأفقي والرأسي لهذا النشاط وتوزيعه على عدد كبير من دول العالم وبما يشمله هذا التنوع داخل قطاعات الاقتصاد والزراعة والصناعة واستخراج المواد الأولية.

وتقوم هذه الشركات باستثماراتها في دول إسلامية عديدة وبما يخدم مصالح الدولة الأم وهي الدول المتقدمة صناعياً.

ومن الأمور الخطرة هنا إمكانية أن يتعارض نشاط تلك الشركات مع المصالح القومية للدول الإسلامية خاصة في الصناعات الاستخراجية أو الصناعات التحويلية المسببة للتلوث البيئي الذي يخرج عن دائرة اهتمام الشركات متعدية الجنسيات.

وقد سعت أيضا هذه الشركات للحصول على إمدادات جديدة من المواد الخام والوقود من الدول الإسلامية كما اتجهت إلي استغلال العمل الرخيص في بعض المناطق الإسلامية لإنتاج سلع التصدير التي تحتاجها الدول المتقدمة وبالتالي لا يعدو نشاط هذه الشركات إلا أن يكون مد الدول المتقدمة بما تحتاجه هي وليس ما تحتاجه الدول الإسلامية وبما يساعدها على التطوير.

د- تأثير المؤسسات الدولية:

إن الإمكانيات الكبيرة لكل من صندوق النقد الدولي والبنك في التأثير على القرارات الاقتصادية للأعضاء لا ترتبط بدور كل من الصندوق والبنك في إقراض أو مساعدة الدول الإسلامية لمواجهة أزمات ميزان المدفوعات أو احتياجات النمو الاقتصادي فحسب، وإنما بالدور القيادي لهذه المؤسسات في النظام المالي والدولي ونصائحها بالنسبة لدولة من الدولة على مدى استعداد المؤسسات المالية المختلفة العامة والخاصة لتقديم الأموال للدولة المعينة لمعاونتها في مواجهة أزمة قصيرة الأجل في ميزان مدفوعاتها لتقديم تمويل طويل الأجل لأنشطة تنموية أو حجبها لمثل هذه التدفقات.

ويزداد نفوذ البنك الدولي بصفة خاصة لأن أغلب الدول المقترضة تقبل دوره كقائد ومنسق ومتحدث باسم مانحي المساعدات أو القروض، وبذلك يستخدم هذا النفوذ في اتباع الدول المقترضة لسياساته عن طريق الضغط الاقتصادي من خلال الربط بين حصول الدولة على قروض ومساعدات وبين إجراء تغييرات معينة في سياساته أيضاً عن طريق التأثير على الفكر التنموي في الدول المتلقية، وبالتالي يصعب على الدول المتلقية تبنى أيدولوجيتها الخاصة النابعة من قوميتها الدينية.

إن السياسات التي يدعو إليها البنك هي فى الأغلب الأعم تعبير عن وجهة نظر الدول الرأسمالية المتقدمة التي لها سيطرة على البنك، حيث إنها المصدر الأساسي للأموال التي يتم جمعها أو إقراضها، وبالتالي تضمن الدول الرأسمالية أن تدور في فلكها الدول الإسلامية من خلال تدفق الأموال منها إلي الدول الرأسمالية عن طريق الأرباح والفوائد والتجارة الدولية غير المتكافئة في ظل تقسيم العمل الدولي السائد دولياً.

أيضاً الإعلام الدولي الذي يتحكم في الثورة المعلوماتية، فقد أصبح العالم بحكم ثورة الاتصالات قرية واحدة تنتقل فيه الأخبار من مكان إلي مكان بسرعة فائقة، ومكن تطور الأقمار الصناعية من رؤية الأحداث التي تتم في أحد أطراف المعمورة بعد لحظات محدودة من وقوعها إلا أن عملية النقل ليست شاملة أو محايدة.

إن ما ينقل فعلا من أنباء أو أخبار وأحداث هو ما ترى وكالات الأنباء العالمية إذاعته وما تعتقد شبكات الإرسال أو المسيطرون عليها أهمية إرساله وتوزيعه.

ومضمون أي رسالة إعلامية محكوم هو أيضا باختيارات العناصر المسيطرة على الإعلام ووجهة نظرها حول الأحداث المبثوثة.

وبالتالي فإن الرسالة الإعلامية تتلون بوجهة نظر مرسليها الذين هم في هذه الحالة الوكالات الدولية للدول الرأسمالية المتقدمة، وهذا من شأنه أن يدعم النظرة إلي الدول الرأسمالية المتقدمة باعتبارها مركز العالم وتأكيد وجهة نظرها فيما يتعلق بقضايا التنمية والعلاقات الاقتصادية بين الدولة الرأسمالية والدول الإسلامية.

وبالتالي تسود القيم الاستهلاكية بصورة واسعة، وخاصة وأن محدودية المقدرة على إنتاج نوعية من البرامج المطلوبة يؤدي لاعتماد الدول الإسلامية على الإنتاج الخارجي فتقدم بذلك برامج مستوردة ذات مضمون ثقافي وقيمي يخالف الكثير من الثقافات والقيم الإسلامية، وخطورة ذلك في أنها تقدم أسلوباً للحياة ونوعاً من الحياة الغربية كمثل أعلى يحتذي لدي العديد من الشعوب الإسلامية، التي لا تمكنها قدراتها المادية وإمكانياتها الإنتاجية من تحقيق مثل هذا النمط.